

(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٠) فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكًا وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١) قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣) فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٤) ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتٍ لِّيَسْجُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ (٣٥)) .

[يوسف : ٣٠ - ٣٤] .

يخبر تعالى أن خبر يوسف وامرأة العزيز شاع في المدينة، وهي مصر، حتى تحدث الناس به : فقال تعالى :

(وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ) أي : وقال نسوة من نساء مدينة مصر - على سبيل النقد والتشهير والتعجب - إن امرأة العزيز، صاحبة المكانة العالية، والمنزلة الرفيعة، بلغ بها الحال في انقيادها لهواها، وفي خروجها عن طريق العفة.. أنها تراود فتاها عن نفسه، أي: تطلب منه مواقعتها، وتتخذ لبلوغ غرضها شتى الوسائل والحيل.

● قوله تعالى (وَقَالَ نِسْوَةٌ..) قيل: مثل نساء الأمراء و الكبراء، ينكرن على امرأة العزيز، وهو الوزير، ويعين ذلك عليها .

وقيل : وهي امرأة ساقى العزيز وامرأة خبازه ، وامرأة صاحب دوابه ، وامرأة صاحب سجنه ، وامرأة حاجبه .

لكن الواقع : أن القرآن لم يبين لنا عدد هؤلاء النسوة ولا صفاتهم، لأنه لا يتعلق بذلك غرض نافع، ولأن الذي يهدف إليه القرآن الكريم هو بيان أن ما حدث بين يوسف وامرأة العزيز، قد شاع أمره بين عدد من النساء في مدينة كبيرة كمصر وفي وصفها بأنها «امرأة العزيز» زيادة في التشهير بها. فقد جرت العادة بين الناس، بأن ما يتعلق بأصحاب المناصب الرفيعة من أحداث، يكون أكثر انتشاراً بينهم، وأشد في النقد والتجريح.

(امْرَأَةُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ) أي: تحاول غلامها عن نفسه، وتدعوه إلى نفسها .

● قال أبو حيان : وصرحوا بإضافتها إلى العزيز مبالغة في التشنيع ، لأن النفوس أقبل لسماع ذوي الأخطار وما يجري لهم.

(قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا) أي قد: وصل حبه إلى شغاف قلبها ، وهو غلافه.

● قال ابن عطية : قوله تعالى (شغفها) معناه : بلغ حتى صار من قلبها موضع الشغاف ، وهو على أكثر القول غلاف من

أغشية القلب ، وقيل : " الشغاف " : سويداء القلب ، وقيل : الشغاف : داء يصل إلى القلب.

والمعنى : أنه وصل حبه إلى سويداء قلبها ، وبالجمله فهذا كناية عن الحب الشديد والعشق العظيم.

(إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) أي: في صنيعها هذا من حبه فتاها، وراودتها إياه عن نفسه.

● قال الحازن : يعني في خطأ بيّن ظاهر حيث تركت ما يجب على أمثالها من العفاف والستر وأحبت فتاها.

(فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ) قال بعضهم: بقولهن .

وإنما سمى قولهن مكرًا لوجوه :

الأول : أن النسوة إنما ذكرت ذلك الكلام استدعاء لرؤية يوسف عليه السلام والنظر إلى وجهه لأنهن عرفن أنهن إذا قلن ذلك عرضت يوسف عليهن ليتمهدها عندهن.

وقال محمد بن إسحاق: بل بَلَّغَهُنَّ حُسْنُ يَوْسُفَ، فأحبين أن يرينه، فقلن ذلك ليتوصلن إلى رؤيته ومشاهدته، فعند ذلك

الثاني : أن امرأة العزيز أسرت إليهن حبه ليوسف وطلبت منهن كتمان هذا السر ، فلما أظهرن السر كان ذلك غدرًا ومكرًا.

الثالث : أنهن وقعن في غيبتها ، والغيبة إنما تذكر على سبيل الخفية فأشبهت المكر.

● قال الحازن : وإنما سمي قولهن ذلك مكرًا :

لأنهن طلبن بذلك رؤية يوسف وكان وصف لهن حسنه وجماله فقصدن أن يرينه .

وقيل : إن امرأة العزيز أفشت إليهن سرها واستكنتمتهن فأفشين ذلك عليها فلذلك سماه مكرًا .

● قال الشوكاني : (بِمَكْرِهِنَّ) أي : بغيتهن إياها ، سميت الغيبة مكرًا لاشتراكهما في الإخفاء .

وقيل : أردن أن يتوسلن بذلك إلى رؤية يوسف ، فلهذا سمي قولهن مكرًا .

وقيل : إنها أسرت عليهن فأفشين سرها فسمي ذلك مكرًا ،

(أَرْسَلْتُ إِلَيْهِنَّ) أي: دعتهن إلى منزلها لتضيفهن .

(وَأَعْتَدْتُ لَهُنَّ مَتَكًا) قال ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والحسن، والسدي، وغيرهم: هو المجلس المعد ، فيه مفارش

ومخاد وطعام، فيه ما يقطع بالسكاكين من أترج ونحوه.

(وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سَكِينًا) في الكلام محذوف : أي : قدمت لهن الطعام وأنواع الفاكهة ثم أعطت كل واحدة منهن

سكيناً لتقطع به .

(وَقَالَتْ اخْرُجْ عَلَيْنَّ) وذلك أنها كانت قد حبأته في مكان آخر .

(فَلَمَّا رَأَيْتَهُ أَكْبَرْتَهُ) أي: أعظمته شأنه ، وأجللته قدره .

● قال ابن عطية : معناه : أعظمته واستهولن جماله ، هذا قول الجمهور .

(وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ) أي : جرحن أيديهن وخذشنها بالسكاكين التي في أيديهن دون أن يشعرن بذلك، لشدة دهشتهن المفاجئة

بهيئة يوسف .

● قال الشوكاني : أي : جرحنها ، وليس المراد به القطع الذي تبين منه اليد ، بل المراد به : الخدش والحز .

● قال الرازي : اتفق الأكترون على أنهن إنما أكبرنه بحسب الجمال الفائق والحسن الكامل؛ قيل : كان فضل يوسف على

الناس في الفضل والحسن كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب .

● قال البغوي : ولم يجدن الأمل لشغل قلوبهن بيوسف .

(وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا) أي : معاذ الله أن يكون هذا بشراً .

(إِنَّ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ) وذلك أن يوسف أعطي من الجمال الفائق والنور والبهاء، ما كان به آية للناظرين، وعبرة للمتأملين.

فلما تقرر عندهن جمال يوسف الظاهر، وأعجبهن غاية، وظهر منهن من العذر لامرأة العزيز، شيء كثير - أرادت أن تريهن

جماله الباطن بالعفة التامة فقالت معلنة لذلك ومبينة لحبه الشديد غير مبالية، ولأن اللوم انقطع عنها من النسوة:

● قال ابن كثير : المقصود منه إثبات الحسن العظيم له قالوا : لأنه تعالى ركز في الطباع أن لا حي أحسن من الملك ، كما ركز

فيها أن لا حي أقبح من الشيطان ، ولذلك قال تعالى في صفة جهنم (طَلَّعُهَا كَأَنَّهَ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ) وذلك لما ذكرنا أنه

تقرر في الطباع أن أقبح الأشياء هو الشيطان فكذا ههنا تقرر في الطباع أن أحسن الأحياء هو الملك ، فلما أرادت النسوة

المبالغة في وصف يوسف عليه السلام بالحسن لا جرم شبهته بالملك.

(قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ) تقول هذا معتذرة إليهن بأن هذا حقيق بأن يحب لجماله وكماله.

● قال الشوكاني : ومعنى (فيه) أي : في حبه . وقيل : الإشارة إلى الحب ، والضمير له أيضاً ، والمعنى : فذلك الحب الذي

لمتني فيه هو ذلك الحب ، والأول أولى . ورجحه ابن جرير .

(وَقَلَّدَ رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعَصَمَ) أي: والله لقد حاولت معه بشتى المغريات أن يطوع نفسه لي، فأبى وامتنع امتناعاً بليغاً، وتحفظ تحفظاً شديداً .

● قال بعضهم: لما رأين جماله الظاهر، أبحرتم بصفاته الحسنة التي تخفى عنهن، وهي العفة مع هذا الجمال .

وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمَرُهُ لِيَسْجَنَنَّ وَلِيَكُونًا مِنَ الصَّاعِرِينَ) أي : ولئن لم يطاوعني ليعاقبن بالسجن والحبس ، وليكونن من الأذلاء المهانين .

● فعند ذلك استعاذ يوسف، عليه السلام، من شرهن وكيدهن، وقال :

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ) من الفاحشة .

قال ابن تيمية : في قَوْلِ يُوسُفَ (قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) عِبْرَتَانِ :

إِحْدَاهُمَا: اخْتِيَارُ السِّجْنِ وَالْبَلَاءِ عَلَى الذُّنُوبِ وَالْمَعَاصِي .

وَالثَّانِيَةُ: طَلَبُ سُؤْلِ اللَّهِ وَدُعَائِهِ أَنْ يُثَبِّتَ الْقَلْبَ عَلَى دِينِهِ وَيَصْرِفَهُ إِلَى طَاعَتِهِ وَإِلَّا فَإِذَا لَمْ يُثَبِّتِ الْقَلْبَ صَبَا إِلَى الْأَمْرِينِ بِالذُّنُوبِ وَصَارَ مِنَ الْجَاهِلِينَ . فَفِي هَذَا تَوَكُّلٌ عَلَى اللَّهِ وَاسْتِعَانَةٌ بِهِ أَنْ يُثَبِّتَ الْقَلْبَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ وَفِيهِ صَبْرٌ عَلَى الْمِحْنَةِ وَالْبَلَاءِ وَالْأَذَى الْحَاصِلِ إِذَا ثَبَّتَ عَلَى الْإِيمَانِ وَالطَّاعَةِ .

● قوله (مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ) ولم يقل مما تدعوني إليه امرأة العزيز، لأنهن جميعا كن مشتركات في دعوته إلى الفاحشة سواء بطريق مباشر أو غير مباشر، بعد أن شاهدن هيئته وحسنه، وبعد أن سمعن ما قالته في شأنه ربة الدار..

قال الألوسي: «وإسناد الدعوة إليهن، لأنهن خوفنه من مخالفتها، وزين له مطاوعتها.

فقد روى أنهن قلن له أطع مولاتك، واقض حاجتها، لتأمن عقوبتها.

وروى أن كل واحدة منهن طلبت الخلوة به لنصيحته، فلما خلت به دعته إلى نفسها ...

(وَإِلَّا تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ) اعتراف منه ﷺ بضعفه البشري الذي لا قدرة له على الصمود أمام الإغراء، إذا لم يكن معه عون الله تعالى وعنايته ورعايته.

والمعنى: وإلا تدفع عنى يا إلهى كيد هؤلاء النسوة، ومحاولتهن إيقاعي في حباتهن، أمل إليهن. وأطاوعهن على ما يردنه منى.

(وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) أي : وأكن بذلك من الجاهلين السفهاء الذين يخضعون لأهوائهم وشهواتهم، فيقعون في القبائح والمنكرات.

● قال السعدي : فإن هذا جهل، لأنه أثر لذة قليلة منغصمة، على لذات متتابعات وشهوات متنوعات في جنات النعيم، ومن أثر هذا على هذا، فمن أجهل منه؟! فإن العلم والعقل يدعو إلى تقديم أعظم المصلحتين وأعظم اللذتين، ويؤثر ما كان محمود العاقبة.

(فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ) أي: فاستجاب الله تعالى ليوسف دعاءه وضراعته، فدفع عنه بلطفه وقدرته كيد هؤلاء النسوة ومكرهن، بأن أدخل اليأس في نفوسهن من الطمع في استحبابته لهن، وبأن زاده ثباتاً على ثباته، وقوة على قوته، فلم ينخدع بمكرهن، ولم تلن له قناة أمام ترغيبهن أو تهيبهن.

(إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ) لدعاء الداعين، والنجيب لضراعة المخلصين .

(الْعَلِيمُ) بأحوال القلوب، وبما تنطوي عليه من خير أو شر.

العليم : بنيته الصالحة، وبنيته الضعيفة المقتضية لإمداده بمعونته ولطفه.

● قال ابن كثير : وذلك أن يوسف، عليه السلام، عَصَمَهُ اللهُ عَصْمَةً عَظِيمَةً، وحماه فامتنع منها أشد الامتناع، واختار السجن على ذلك، وهذا في غاية مقامات الكمال: أنه مع شبابه وجماله وكماله تدعوه سيده، وهي امرأة عزيز مصر، وهي مع هذا في غاية الجمال والمال، والرياسة ويمتنع من ذلك، ويختار السجن على ذلك، خوفا من الله ورجاء ثوابه.

ولهذا ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه، ورجل دعت امرأة ذات جمال ومنصب، فقال: إني أخاف الله) .

(ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لَيْسُجُنَّتْهُ حَتَّى حِينٍ) يقول تعالى: ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين، أي: إلى مدة، وذلك بعدما عرفوا براءته، وظهرت الآيات -وهي الأدلة- على صدقه في عفته ونزاهته. فكأنهم -والله أعلم- إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاما أن هذا راودها عن نفسها، وأنهم سجنوه على ذلك. ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة، امتنع من الخروج حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة، فلما تقرر ذلك خرج وهو نَقِيَّ العَرَضِ، صلوات الله عليه وسلامه.

● قال السعدي (لَيْسُجُنَّتْهُ حَتَّى حِينٍ) أي: لينقطع بذلك الخبر ويتناساه الناس، فإن الشيء إذا شاع لم يزل يذكر ويشاع مع وجود أسبابه، فإذا عدت أسبابه نسي، فأروا أن هذا مصلحة لهم، فأدخلوه في السجن.

● المراد بالآيات: الحجج والبراهين الدالة على براءة يوسف ونزاهته، كانشقاق قميصه من دبر، وقول امرأة العزيز ولقد راودته عن نفسه فاستعصم، وشهادة الشاهد بأن يوسف هو الصادق وهي الكاذبة ... والحين: الزمن غير المحدد بمدة معينة.

الفوائد :

١- بيان طبيعة الإنسان في حب الاطلاع وتتبّع الأخبار وخاصة النساء .

٢- ضعف النساء أمام الرجال وعدم قدرتهن على التحمل كالرجال .

٣- كيد النساء لبعضهن .

٤- أن من شغل قلبه بشيء إذا أصيب لم يجد الألم ولا يشعر به .

٥- احتمال المشقة في ذات الله والصبر على نوائب الدهر وانتظار الفرج ، فلا بد من الصبر بفعل المأمور ، والصبر على المقدور .

قال ابن تيمية : ... فَلَا بُدَّ مِنَ التَّفَوُّي بِفِعْلِ الْمَأْمُورِ وَالصَّبْرِ عَلَى الْمَقْدُورِ كَمَا فَعَلَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ اتَّقَى اللهُ بِالْعَفَّةِ عَنِ الْفَاحِشَةِ وَصَبَرَ عَلَى أَذَاهُمْ لَهُ بِالْمُرَاوَدَةِ وَالْحُبْسِ وَاسْتَعَانَ اللهُ وَدَعَاَهُ حَتَّى يُثَبِّتَهُ عَلَى الْعَفَّةِ فَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ وَصَبَرَ عَلَى الْحُبْسِ .

وقال : ... وَمَنْ اخْتَمَلَ الْهُوََانَ وَالْأَذَى فِي طَاعَةِ اللهِ عَلَى الْكِرَامَةِ وَالْعَزِّ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ كَمَا فَعَلَ يُوسُفُ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَعَيْبُهُ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ كَانَتْ الْعَاقِبَةُ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ مَا حَصَلَ لَهُ مِنَ الْأَذَى قَدْ انْقَلَبَ نَعِيمًا .

وقال : وَأَمَّا الصَّبْرُ عَنِ الشَّهَوَاتِ وَالهُوَى الْعَالِبِ لِلَّهِ لَا رَجَاءَ لِمَخْلُوقٍ وَلَا خَوْفًا مِنْهُ مَعَ كَثْرَةِ الدَّوَاعِي إِلَى فِعْلِ الْفَاحِشَةِ وَاخْتِيَارِهِ الْحُبْسَ الطَّوِيلَ عَلَى ذَلِكَ كَمَا قَالَ يُوسُفُ : (رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ) فَهَذَا لَا يُوجَدُ نَظِيرُهُ إِلَّا فِي خِيَارِ عِبَادِ اللهِ الصَّالِحِينَ وَأَوْلِيَائِهِ الْمُتَّقِينَ كَمَا قَالَ تَعَالَى (كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ) فَهَذَا مِنْ عِبَادِ اللهِ الْمُخْلَصِينَ الَّذِينَ قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيهِمْ (إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ) .

٦- وجوب الاعتصام بالله .

٧- ينبغي للعبد أن يلتجئ إلى الله، ويحتمي بحماه عند وجود أسباب المعصية، ويتبرأ من حوله وقوته؛ لقول يوسف عليه السلام : وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ .

٨- خطر ركون العبد على نفسه .

٩- خطر العشق والصور المحرمة .

١٠- عدم صبر النساء على حفظ الاسرار .

١١- إثارة السجن على المعصية من مظاهر الصديقية .

١٤٣٩/١١/٢٥ هـ